

التدوين التاريخي بالقيروان من نهاية القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع للهجرة

د. منير رويس
المعهد العالي لأصول الدين
جامعة الزيتونة (تونس)

يبحث هذا العمل في موضوع التاريخ والتدوين التاريخي بالقيروان من نهاية القرن الثاني للهجرة/8م إلى نهاية القرن الرابع للهجرة/10م. كانت القيروان آنذاك مركزا علميا وثقافيا بارزا اتصف بحيويته وإشعاعه على عدة مناطق ببلاد المغرب والأندلس. ولم يمنع انتقال السلطة من الأغالبة (184-296 هـ/800-909 م) إلى الفاطميين (296-362 هـ/909-973 م) ثم إلى الصنهاجيين (بداية من 362 هـ/909 م) من تواصل نشاط القيروان العلمي والثقافي في تلك الفترة.

فما هي العوامل المساعدة على التدوين التاريخي بالقيروان ؟ ومن هم أعلام الكتابة التاريخية وما هي أبرز آثارهم خلال الفترة ؟ وما هي المواضيع التي تناولها مؤرخو إفريقية بالبحث والكتابة.

أولا : العوامل المساعدة على عناية أهل إفريقية بالتاريخ :

ساعدت عدة عوامل أهل إفريقية على العناية بجمع الأخبار وتدوينها ووضع كتب فيها. أولها : اطلاع أهل المنطقة على ما كان يجري عند

المصريين من عناية بالتاريخ. وثانيها وجود نخبة مثقفة بإفريقية قادرة على كتابة التاريخ. وثالثها : عناية الحكام بعلم التاريخ.

1 - أثر الرحلة إلى مصر في تطور علم التاريخ :

اتجه المغاربة إلى بلاد المشرق للحج والتعلم والتجارة والسياحة. ومثلت مصر محطة هامة ينزل بها المرتحلون ويبقون فيها مدة قد تطول أو تقصر حسب أغراض الرحلة. ويعد الطلبة أهم المرتحلين إلى مصر يأخذون عن شيوخها العلوم ويتأثرون بالنهضة الثقافية والعلمية الحاصلة فيها. وتأثرهم كان واضحا في مجال الفقه كما كان واضحا في مجالات أخرى كالحديث والتفسير وكذلك التاريخ.

لقد شهد المتعلمون المغاربة نشأة مدرسة تاريخية في مصر اصطلاح الدارسون على تسميتها باسم المدرسة التاريخية المصرية. اهتمت هذه المدرسة بتاريخ مصر بالأساس، كما اهتمت بتاريخ بلاد المغرب والأندلس.

لقد جمع المصريون أخبار بلاد المغرب والأندلس من المشاركين في عمليات فتح هذه المناطق والعائدين إلى مصر والمستقرين بها. كما أنهم جمعوها من المغاربة الوافدين على مصر والمقيمين بها للتعلم أو المارين عبرها نحو الحجاز لأداء مناسك الحج وزيارة المدينة المنورة.

ويمكن حصر تاريخ جمع أخبار المغرب والأندلس عند المصريين في مرحلتين : أولاها : مرحلة تناقل الأخبار بين مصر وبلاد المغرب وروادها علماء اعتنوا بالأخبار والتاريخ وكانت لهم اتصالات بمصر وبلاد المغرب في أكثر من مناسبة. والمرحلة الثانية : هي مرحلة عناية المصريين أنفسهم بأخبار المغرب والأندلس وروايتها وتدوينها.

مرحلة تناقل الأخبار بين مصر والمغرب :

شاركت جماعة من علماء مصر في عمليات فتوح بلاد المغرب ثم رجعت إلى مصر واستقرت وربما تولت بها الخطط والمسؤوليات. ومكنتهم هذه المشاركة من الاطلاع على أحداث الفتوحات ومن التعرف على أحوال بلاد

المغرب زيادة على معرفتهم على ما كان يجري في مصر من أحداث. وبما أن هؤلاء الأعلام كانوا مولعين بجمع الأخبار وروايتها فقد مكثوا من وضع لبنة أولى في كتابة تاريخ المناطق التي عرفوها، واعتبرت أخبارهم وروايتهم مرجعا لأعمال المؤرخين من بعدهم. ومن هؤلاء :

- عبد الله بن عمرو بن العاص (ت 65 هـ/684 م) : صحابي شارك بنفسه في حملة العبادة السبعة سنة 27 هـ/647 م. كان راوية للحديث ومن المولعين بمعرفة الأخبار. استقر في مصر ودرّس بها كما تولى حكمها سنتين. روى عدة أحاديث في فضائل إفريقية أخذها عنه تلاميذه.

- حيي بن هاتئ المعافري المصري، أبو قبيل، (127 أو 128 هـ/744 أو 745 م) : محدث أصله من اليمن وسكن مصر إلى أن توفي. شارك في فتح إفريقية وروى عنه المصريون مثل يزيد بن أبي حبيب وبكر بن مضر والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة. وكان يتحدث بفضائل إفريقية. وقد نقل عنه يزيد بن أبي حبيب كثيرا من الأخبار في كتابه فتوح مصر. كما نقل عنه أبو العرب أخبارا في فضائل إفريقية.

- يزيد بن أبي حبيب، (ت 128 هـ/746 م) : مفتي مصر ومحدثها وعالمها. يُعد أحد قدماء مؤرخي مصر، وله كتابان الأول جمع فيه أخبار فتح مصر وولاية عمرو بن العاص، لكن لم تصلنا منه سوى مقتبسات استعملها من بعده ابن عبد الحكم والبلاذري والكندي والطبري. ومما أخذه عنه الطبري في تاريخه حملة عقبة بن نافع على إفريقية سنة 50 هـ. والكتاب الثاني جمع فيه أحاديث السير والمغازي.

- موسى بن علي بن رباح اللخمي (ت 163 هـ/779 م) : عالم قيرواني انتقل إلى مصر عندما عينه المنصور واليا عليها وبقي في خطته زمن المهدي. كان عارفا بأخبار إفريقية والمغرب. حدث المصريين بأخبار والده علي بن رباح اللخمي الذي شارك في فتوحات المغرب. كما حدثهم بأخبار القيروان التي عاش فيها مدة تفوق الخمسين سنة. وورد اسم موسى بن علي بن رباح اللخمي كمصدر للمعلومات عن مصر وعن فتح الأندلس لدى الكثير من المؤلفين من بعده أمثال الواقدي وابن عذاري.

مرحلة تجميع أخبار بلاد المغرب والأندلس وتدوينها :

منذ القرن الثاني للهجرة/8 م صارت أخبار المغرب والأندلس أكثر تداولاً في مصر اعتنى بها جيل من العلماء الذين برعوا في شتى العلوم ومنها التاريخ ويتجلى هذا عند قراءة تراجم هؤلاء الأعلام :

- عبد الله بن عقبة بن لهيعة الحضرمي المصري، أبو عبد الرحمن، (ت 174 هـ/ 790 م) : ولي قضاء مصر سنة 155 هـ بأمر من المنصور وكان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية. ويعد مصدر كثير من الأخبار التي سجلها مؤرخو مصر منذ ابن عبد الحكم حتى السيوطي⁽¹⁾. ومصادر أخباره متنوعة منها التي أخذها عن يزيد بن أبي حبيب المحدث المذكور سالفاً، أو التي أخذها من علماء الحجاز الذين اتصل بهم، أو كذلك التي أخذها من المغاربة الوافدين على مصر وكانوا على صلة به. وقد يكون عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الذي زار مصر وروى فيها الأحاديث والأخبار، أحد الذين كانوا يزودونه بالمعلومات الخاصة بإفريقية وبلاد المغرب.

- الليث بن سعد، أبو الحارث الفهمي المصري، (ت 175 هـ/ 791 م) : فقيه مصري شهير. كان موسراً ومخالطاً للعلماء والحكام وقد جمع كما أفرا من المعلومات التاريخية المتعلقة بمصر وإفريقية والأندلس ورجالها. وقد ترك كتاباً في التاريخ ذكره ابن النديم في الفهرست. وقد لا تكون الأخبار المروية عن الليث لدى المؤرخين اللاحقين إلا مقتطفات ونقولا عن هذا الكتاب⁽²⁾. ونذكر من بين الذين نقلوا عن الليث بن سعد : خليفة بن خياط في تاريخه وابن عبد الحكم في فتوح مصر.

ومن الليث هذا أخذت جماعة من طلبة المغرب العلوم ومن بينهم القيرواني عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر، (ت 252 هـ/ 866 م) الذي أخذ عنه بعض الأخبار. وقد يكون تلميذه هذا قد زوده بدوره ببعض أخبار

(1) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، 1978، 157/2.

(2) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، 157/2.

إفريقية ومنها أخبار جدّه أبي المهاجر الذي ولي إفريقية من قبل الأمويين بعد ولاية عقبة بن نافع الأولى سنة 55 هـ/674 م.

- عبد الله بن وهب بن مسلمة الفهري بالولاء، أبو محمد، (ت 197 هـ/812 م) : أحد أعمدة المذهب المالكي وذيوعه في مصر. كانت له عناية بالحديث وله ولع بمعرفة الأخبار والتاريخ ومنها أخبار وتاريخ بلاد المغرب والأندلس. صنّف كتابا في المغازي وآخر في الردّة وثالثا في البيعة. أخذ عنه المؤرخون ومنهم ابن عبد الحكم الذي نقل عنه بعض الروايات التي تخص فتوح إفريقية.

أخذ ابن وهب رواياته التاريخية عن شيوخه المصريين كالليث بن سعد. كما أخذها عن المغاربة أنفسهم الذين زاروا مصر واتصلوا به، ومنهم القاضي عبد الرحمان بن زياد بن أنعم الذي كان يتنقل بين المناطق ويروي الأحاديث والأخبار. ومنهم أيضا عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر المذكور سالفًا.

- عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، أبو محمد، (الأب)، (ت 213 هـ/839 م) : انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في مصر. روى أخبارا تاريخية تخص فتوح مصر والمغرب وهي التي كانت الأساس الأول الذي أقام عليه ابنه عبد الرحمان، كتابه فتوح مصر والمغرب⁽¹⁾.

- (ابنه) عبد الرحمان بن عبد الله بن الحكم، أبو القاسم (ت 257 هـ/871 م) : اشتهر بكتاب فتوح مصر والمغرب. واعتمد في كتاباته على روايات عدد من المعتنقين بالتاريخ منهم : أبو عثمان سعيد بن كثير بن عفير المصري (ت 226 هـ/841 م) الذي وضع كتابا عنوانه أخبار الأندلس استعمله ابن عبد الحكم في عدة مواضع. ومنهم كذلك أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي بالولاء، المصري (ت 231 هـ/845 م) الذي كان مع ابن عبد

(1) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، 159/2.

الحكم (الأب) المصدر الأساسي لكثير من الأخبار الهامة التي سجلها ابن عبد الحكم (الابن)⁽¹⁾.

قسم أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد الحكم كتابه إلى سبعة أجزاء تخص فضائل مصر وتاريخها قبل الإسلام وعمليات فتحها ونظمها في نطاق الحكم الإسلامي. وخصص الجزء الأخير لمختارات من الحديث والروايات المنسوبة إلى الصحابة الذين دخلوا مصر. وفي خضم تاريخ مصر تحدث عن فتح إفريقيا والأندلس إلى سنة 127 هـ/744 م.

ويبقى كتاب ابن عبد الحكم مصدرا هاما لتاريخ فتوح المغرب والأندلس يرجع إليه المؤرخون المشاركة والمغاربة ويستمدون منه الكثير من المعلومات ذات القيمة.

2 - انتشار الثقافة العربية الإسلامية بإفريقية :

العامل الثاني المساعد على العناية بالتاريخ هو انتشار الثقافة العربية الإسلامية في مجتمع إفريقية. فما إن توسط القرن الثاني للهجرة/8 م حتى أخذ المغاربة في المساهمة في الإنتاج الفكري. وغدت القيروان مركزا علميا نشيطا أفرز نخبة من العلماء. كما صارت القيروان مصدر إشعاع ثقافي على مناطق عديدة هي إفريقية وباقي بلاد المغرب والأندلس وصقلية.

ويمكن الحديث عن "الاكتفاء الذاتي العلمي"⁽²⁾ لأهل المغرب منذ القرن الثالث للهجرة/9م. فقد أراد علماء المنطقة التميز عن باقي المناطق الإسلامية فأنجبوا مصنفات عرفوا بها. فكتب يحيى بن سلام في التفسير، وكتب الإمام سحنون في الفقه ووضع مدونته الشهيرة. وكتب ابن الجزار في الطب ووضع عدة مؤلفات جعل الأدوية فيها مشتقة من نباتات ومواد تتوفر بالمنطقة وفي متناول كل السكان فقراهم وأغنيائهم. وكتب أبو العرب في التاريخ وأكد فضائل بلاد المغرب وتاريخ دخول المسلمين إليها وترجم لأبرز أعلامها.

(1) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، 163/2.

(2) بونار رابح، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الجزائر، 1981، ص 69.

والاكتفاء الذاتي العلمي الذي ذكرناه لم يكن يعني الانقطاع عن المشرق بصفة تامة، بل تواصلت الرحلة والاحتكاك بالمشرق وأهله على الدوام. ومكنت الرحلة من الالتقاء بالشيوخ والاستفادة منهم. وقلّ أن تجد عالما متميزا لم يقم برحلة أو رحلات علمية في المشرق استفاد منها معرفيا بصفة ملحوظة.

وإذا كان أهل إفريقية اعتنوا بالعلوم الدينية بالدرجة الأولى من فقه وتفسير وقراءات وحديث، فإنهم لم يهملوا باقي العلوم وأعطوها قدرا من العناية ومنها الأدب والطب والتاريخ. وإننا في هذه الدراسة سنولي عناية بعلم التاريخ وبأهله. وأهله هم الإخباريون والمؤرخون وكل العلماء الذين شغفوا بالتاريخ وكتبوا فيه كالفقهاء والأطباء وغيرهم من المفكرين. وقد اعتبر الدكتور فاروق عمر فوزي في كتابه **التدوين التاريخي عند المسلمين**، أن كل علماء المسلمين حرصوا على العناية بالتاريخ وجعل ذلك عاملا من جملة عوامل العناية بالتاريخ بعد الإسلام. وجاء في شرحه لهذا العامل قوله الآتي ذكره : " الشعور لدى العلماء بأن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي يخدم العلوم الدينية الأخرى ويتممها ويوضحها خاصة وأن العديد ممن اهتم بالتاريخ من الأوائل كانوا محدثين أو مفسرين أو فقهاء، فكان الغرض من تدوين التاريخ هو الحفاظ على الشريعة. ومن هنا جمع عديد من الفقهاء والعلماء بين الفقه والتاريخ. وكان العمل بعلم المغازي والسيرة النبوية مكملا للفقه. والحالة نفسها تنطبق على علم الطبقات والتراجم فهو من ضرورات المؤرخ والفقيه في آن واحد... وقد جمع العديد من العلماء بين التاريخ الإسلامي وعلوم الشريعة لإدراكهم بحتمية التلازم ومنهم الطبري وابن كثير والذهبي وابن عساكر والسخاوي وغيرهم كثير" (1).

وإننا في القسم الموالي من هذه الدراسة ومن خلال تراجم أعلام كل من كتب في التاريخ، سنلاحظ أن عدد المؤرخين هو أقل من عدد باقي العلماء الذين جمعوا بين التاريخ وعلم آخر. فالفقيه ابن أبي زيد القيرواني والطبيب

(1) فوزي، فاروق عمر، **التدوين التاريخي عند المسلمين**، مقدمة في دراسة نشأة علم التاريخ وتطوره حتى بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مركز زايد للتراث والنشر، 2004، ص 44.

أحمد بن الجزار برعا في اختصاصهما وكانت لهما في الوقت نفسه عناية فائقة بالتاريخ، وهو ما سنتعرف عليه لاحقا.

3 - عناية حكام إفريقية بالتاريخ :

العامل الثالث الذي ساعد على اهتمام أهل إفريقية بالتاريخ هو عناية الحكام بالتاريخ والمؤرخين. ففي عهد الولاة تميز الوالي العباسي على إفريقية يزيد بن حاتم المهلبى (154-170 هـ/771-787 م) بحبه للتاريخ. ومنذ دخوله إفريقية اصطحب معه الإخباري المعمر بن سنان التميمي (ت 177 هـ/793 م). وكان المعمر واسع المعرفة بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها. وكان يزيد بن حاتم يقربه منه ويركبه معه في تنقلاته لما كان يجد في صحبته من أنس وأدب. وهذا الوالي نفسه استقبل بحفاوة النحوي والمؤرخ قتيبة الجعفي القادم من المشرق وجعله في ضيافته مدة طويلة. ومن الأكيد أن الوالي يزيد بن حاتم كان يستمتع بسماع أخبار العرب في مجالسه. وهي الأخبار نفسها التي بدأ أهل القيروان يقبلون على سماعها وتعلمها.

واختص الأغالبة بدورهم بالعناية بالأخبار والروايات التاريخية. فالحاكم الأغلبى الأمير محمد بن الأغلب (226-242 هـ/841-856 م) نصحه الإمام سحنون بن سعيد أن يستأنس بأحد الإخباريين في ليالي رمضان. والإخباري هو أبو إسحاق الملقب الذي اشتهر في القيروان بمعرفته بالأخبار. وقد أورد المالكي في رياض النفوس خبر استقدام الأمير الأغلبى له إلى القصر عملا بنصيحة الإمام سحنون. وكان هذا المؤرخ يتردد على قصور بني الأغلب الذين كانوا يرسلون إليه في رمضان يحدثهم بالأخبار التاريخية حتى يقطع عنهم بهم طول النهار. ونص الخبر بالكامل هو :

" وحدث الشيخ أبو القاسم بن شبلون الفقيه، رضي الله تعالى عنه، فيما بلغه، أن سحنون بن سعيد دخل على محمد بن الأغلب الأمير أول يوم من شهر رمضان، فألقى الأمير خاليا، فقال له : أراك أيها الأمير خاليا، فقال نعم، انفردنا هذا الشهر المعظم وخلصنا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل. فقال سحنون : فأين أنت أيها الأمير من إسحاق الملقبوني يحدثك بأخبار الأمم السالفة والأعوام

الماضية. فأمر محمد بن الأغلب بإحضاره. وكان يحضر عند محمد بن الأغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان، فلما رأى هلال شوال خرج الحاجب إليه، فقال : انصرف أجرك الله..."⁽¹⁾.

ووصلت عناية الأغلبية بالتاريخ إلى الكتابة فيه. فالأمير محمد بن زيادة الله بن الأغلب الذي حكم طرابلس مدة قبل أن يتوفى سنة 283 هـ/896 م كتب في تاريخ أسرته أسرة بني الأغلب الحاكمة لإفريقية آنذاك. وكان هذا الأمير أيضا يقرب إليه الأبناء والإخباريين والمؤرخين ومنهم أبو الوليد عبد الملك ابن قطن (ت 253 أو 255 هـ/860-870 م) الذي أعجب بالأمير ووضع في مدحه أشعارا تناقلتها كتب الأدب والتاريخ.

وفي العهد الفاطمي وجدنا أمثلة من تكليف الحكام مثقفي العصر بوضع كتب في العقيدة الإسماعيلية وفي التاريخ. فالحاكم الفاطمي الأول عبيد الله المهدي كلف محمد بن خيرون المعافري (قتل 301 هـ/914 م) بوضع كتاب في نسب الشيعة وأخبارهم. والقاضي النعمان بن محمد (ت 365 هـ/975 م) وضع مصنفات عديدة في العقيدة الإسماعيلية والتاريخ لقي فيها سندا من الحكام الفاطميين واستجاب لهم فيها بالتعبير عن وجهات النظر التي يريد الحكام تبليغها للناس. ومما ذكره القاضي النعمان في كتابه **المجالس والمسائرات** أن أحد رجالات الخلافة الفاطمية في إفريقية قد صنف كتابين في سيرة بني أمية، وبني العباس، وهو الأمر الذي أغضب الخليفة المعز الذي كان ينتظر من تابعه هذا أن يكتب في سير الأئمة (الشيعة) بدلا من أن يكتب في خصومهم.

ولتأكيد فكرة دور الحكام في العناية بالتاريخ، نذكر مثالين من الأندلس لهما علاقة بالقيروان. فالحاكم الأندلسي الحكم الثاني، المستنصر (350-366 هـ/961-976 م) أمر المؤرخ القيرواني المستنقر بالأندلس، الوراق التاريخي (ت 363 هـ/973 م) بوضع كتاب في جغرافية بلاد المغرب وتاريخها فألف له كتابا ضخما اسمه **مسالك إفريقية وممالكها**. والحاكم الأندلسي نفسه المستنصر

(1) المالكي، أبو بكر عبد الله، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، حققه بشير البكوش وراجعته محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، 402/1.

أمر المؤرخ القيرواني المرتحل إلى الأندلس محمد الخشني (توفي حوالي 371 هـ/981 م) أن يضع له كتابا في التاريخ. والكتاب عنوانه قضية قرطبة وسماه ابن فرحون تاريخ قضية الأندلس. وأشار الخشني في مقدمة كتابه هذا إلى أن الخليفة الأموي الحكم هو الذي أمره بكتابته وطلب منه أن يجعله خاصا بقضية قرطبة. ونص على ذلك بقوله : "فإنه لما أمر الأمير - يعني الحكم - بأبقاه الله بتأليف كتاب القضية مقصورا على من قضى للخلفاء، رضي الله عنهم، بأرض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة". ومن هنا نفهم أن عنوان الكتاب هو قضية قرطبة لا تاريخ قضية الأندلس كما ذكر ابن فرحون في الديباج.

ثانيا : أعلام التدوين التاريخي بإفريقية⁽¹⁾ :

نترجم في هذا القسم لأعلام التدوين التاريخي بإفريقية إلى نهاية القرن الرابع للهجرة/10 م، ونبرز خلال كل ترجمة أهم المؤلفات التاريخية التي كتبها المترجم له.

• عبد الرحمان بن زياد بن أنعم بن ذري بن محمد بن معد يكرم السفياي وقيل الشعباني المعافري والإفريقي (ت 161 هـ/778 م)⁽²⁾ :

إخباري له السبق في التدوين التاريخي بإفريقية. ولد ببرقة سنة خمس وسبعين أو أربع سبعين للهجرة. وانتقل مع والده إلى القيروان وشب فيها وتعلم، وكان والده من بين شيوخه. حاز جملة من المعارف فعينه الوالي يزيد

(1) تناولت بعض الدراسات الحديثة بالنظر موضوع التاريخ والتدوين التاريخي بإفريقية، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر : أولا : عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفات التونسيين، منشورات وزارة الثقافة والدار العربية للكتاب، تونس 2001، ج 4/333. ويمتاز بالإضافات والمستدركات التي وضعها بشير البكوش وراجعها محمد العروسي المطوي. ثانيا : رويس، منير، صفة المؤرخين في إفريقية وتونس، من القرن الأول إلى نهاية القرن العاشر للهجرة/7 هـ، 16 م، مصر، 2006. ثالثا : حوالة، يوسف، الحياة العلمية بإفريقية، 90-450 هـ، منشورات جامعة أم القرى بمكة، 2000، ج 2/345-367. رابعا : إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، (4-الفكر التاريخي)، مؤسسة الانتشار العربي 2000. وهي دراسة تجاوز فيها صاحبها مجال إفريقية ليمسح بالدرس والتحليل تاريخ الكتابة التاريخية في كامل بلاد المغرب.

(2) انظر : المالكي، رياض النفوس، 129/1، الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، المكتبة العتيقة تونس، 1993، 220/1.

ابن حاتم (154-170 هـ/771-778 م) في منصب قاضي إفريقية. لكن يزيد ابن حاتم عزله بسبب رفضه تدخل الحاكم في إصدار حكم بغير حق.

رحل إلى تونس بعد عزله من القضاء وبقي فيها مدة وعاد إلى القيروان واستقر بها إلى أن توفي.

كان راوية للحديث روى خمسمائة حديث حسب ما نقل أبو العرب في ترجمته. كما كانت له عناية بالتواريخ والأخبار.

استفاد عبد الرحمان بن زياد بن أنعم من والده الذي كان يحدثه بأخبار فتوحات إفريقية. فقد كان والده من بين المشاركين في حملة حسان بن النعمان على إفريقية سنة 74 هـ/693 م وشاهد بنفسه عمليات حصار قرطاج. كما كان أحد المساهمين في حروب موسى بن نصير في إفريقية والمغرب. لم يكن عبد الرحمان بن زياد الوحيد المستفيد من روايات والده التاريخية، فقد استقرّ والده بعد المشاركة في الحروب بالقيروان واختط بها دارا في باب ناحية نافع. لقد كان يعلم الناس الحديث ويطلعهم على الأخبار، وروت عنه جماعة منهم ابنه عبد الرحمان المذكور، وابن عمر وأبو أيوب الأنصاري. وتنسب إليه رسالة فيما رواه من الحديث عن عبد الله بن العباس.

لقد جمع عبد الرحمان بن زياد بن أنعم قدرا من الأخبار جعله يحدث بها في مصر. فقد نقل أبو العرب ما يلي: "وقد روى عن عبد الرحمان الجلة من أهل المشرق: سفيان الثوري وعبد الله ابن لهيعة وعبد الله بن وهب وأبو عبد الرحمان المقرئ وغيرهم....".

وضع القاضي عبد الرحمان بن زياد بن أنعم كتابين ذكرهما أبو العرب عن جبلة بن حمود عن سحنون، وهذا ما جعلنا نعتبره صاحب السبق في التدوين التاريخي بإفريقية، بالرغم من أننا لا نعرف عنوان الكتابين ولا محتواه إلى حد الآن. ويبدو أن رواياته التاريخية الشفوية طغت على أعماله المكتوبة. فقد بقي يروي الأخبار بين الناس. ووصلت هذه الأخبار إلى المؤرخين من بعده فدوّنها في كتبهم ومن هؤلاء أبو العرب والبكري وابن

عذاري. يقول أبو العرب : " وقد ذكرنا في كتابنا الذي ألفناه في طبقات الرجال " حكايات كثيرة عن عبد الرحمان... "(1).

ونذكر في هذا المجال مثالين من أخبار عبد الرحمان بن زياد بن أنعم التي تناقلتها المصادر، وهما خبر أسره في بلاد الروم وإطلاق حاكم الروم سراحه. وخبر توليه القضاء ومحادثاته مع أبي جعفر المنصور الذي جمعه به رفقة الدراسة في الصغر (2).

• عيسى ابن أبي المهاجر دينار الأنصاري (3)، (ت 252 هـ/ 866 م)

أقدم مؤرخي إفريقية. هو حفيد القائد العسكري المشهور أبي المهاجر دينار، الذي جاء إفريقية فاتحاً بعد حملة عقبة بن نافع. ولد بالقيروان وبها نشأ وتعلم. ثم انتقل إلى المشرق لمواصلة التعلم. وأخذ في مصر عن جماعة من الشيوخ منهم الحارث بن مسكين ومحمد بن عبد الله بن الحكم وابن وهب. وعاد إلى القيروان وانتصب للتدريس بها. كان له اهتمام بأخبار فتوح إفريقية ووضع في ذلك كتاباً عنوانه مغازي إفريقية. لكن هذا الكتاب لم يصلنا. وتعرفنا على وجوده من خلال المؤرخين الذين رجعوا إليه واستعملوا شواهد منه. ومن هؤلاء المؤرخين أبو العرب في طبقاته وابن عذاري في البيان المغرب والبرقي في المسالك والممالك. يقول الباحث حسن حسني عبد الوهاب : " وفي اعتقادنا أن كثيراً مما رواه قدماء الإخباريين الإفريقيين، مثل محمد بن سحنون ومحمد بن يوسف الوراق وغيرهما من أخبار الفتح العربي للمغرب إنما هو بطريق عيسى هذا " (4).

والناظر في سند أخبار ابن أبي المهاجر يلاحظ رجوعه إلى علماء مشاركة لهم عناية بالتاريخ، منهم شيخه عبد الله بن وهب (ت 197 هـ/ 812 م)

(1) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تونس 1968، 99.

(2) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، 95-105.

(3) انظر : أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، 206- ح ح عبد الوهاب، ورفقات، تونس 1972 69/1، - مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، 69.

(4) عبد الوهاب، ح ح، العمر، 8/4.

الذي يعد من مؤسسي أول مدرسة مصرية تاريخية، إذ كتب في التاريخ واعتنى بالمغازي إلى جانب عنايته بالحديث والفقه.

كما أن عيسى بن أبي المهاجر رجع في كتابه إلى الروايات التي سمعها من أشياخ عرب إفريقية⁽¹⁾. ويمكننا أن نعتبر جدّه أبو المهاجر دينار من هؤلاء الأشياخ الذين أخذ عنهم الأخبار ومنها أخبار الفتوح التي شارك فيها بنفسه.

• محمد بن عبد السلام سحنون التنوخي، أبو عبد الله : (ت 256 هـ - 870 م)⁽²⁾.

فقيه له عناية بالتاريخ. أبوه الإمام سحنون الفقيه المالكي الشهير (ت 240 هـ/854 م). ولد بالقيروان ونشأ فيها وتعلم وأخذ عن شيوخها منهم والده والشيخ موسى بن معاوية والشيخ عبد العزيز بن يحيى المدني. وارتحل منذ سنة 235 هـ/849 م إلى المشرق ودخل مصر والحجاز وأخذ عن شيوخ العصر منهم أبو مصعب الزهري ويعقوب بن كاسب.

عاد إلى القيروان وانتصب للتدريس وكانت له حلقة ولأبيه حلقة في الجامع الكبير بالقيروان. ترجم له المالكي في رياض النفوس ترجمة ضافية ومما جاء فيها : "قال أبو العرب : كان ابن سحنون إماما ثقة عالما بالفقه عالما بالآثار لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ألف في جميع ذلك كتب كثيرة نحو مائتي كتاب في العلوم والمغازي والتاريخ وكان أبوه يقول ما أشبهه إلا بأشهب. وكانت له حلقة غير حلقة أبيه". ومن خلال هذا الاستشهاد نتبين عناية ابن سحنون بالتاريخ. وتؤكد لنا نزعته في حب التاريخ عندما نطلع على قائمة عناوين كتبه التي تشمل كتباً فقهية وتاريخية في الوقت نفسه. ومن كتبه المؤلفة في التاريخ ما يلي :

- كتاب في التاريخ. في ستة أجزاء، وقيل أربعة فقط. وهو مفقود.

(1) إسماعيل، محمود، سوسبولوجيا الفكر الإسلامي، 66.

(2) انظر : المالكي، رياض النفوس، 1/443-، ابن العماد، شذرات الذهب، 2/159، - القاضي عياض، ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير محمود، 3/104 ومحمد الطالبي، تراجم أغلبية، 170-188، - ابن فرحون، الديباج المذهب، بيروت 1996، 333-335، - الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 2/122-136.

- السّير. كتاب في عشرين جزءا.

- طبقات العلماء. كتاب يقع في سبعة أجزاء كلها مفقودة.

والواضح أن ابن سحنون كان غزير الإنتاج في التاريخ. فالكتب الثلاثة المذكورة مكونة من أجزاء عديدة وفقدانها يمثل خسارة لنا لأنها تتضمن دون شك معلومات غزيرة ومفيدة للباحث التاريخي في كل الأوقات. ومثلت هذه الكتب مرجعا للمؤرخين من بعد ابن سحنون. فقد نقل منها أبو العرب في الطبقات والقاضي عياض في ترتيب المدارك والمالكي في رياض النفوس.

• حسن بن مفرّج، أبو القاسم، (ت 308 هـ/920 م)⁽¹⁾ :

إخباري كتب في التراجم. مولى الشاعرة الزاهدة الأميرة مهيبة الأغلبية. كان بصيرا بالوثائق عارفا بالرجال. امتحن وقت الدولة الفاطمية وقتل رميا بالرماح بالمهدية سنة 308 هـ. وسبب قتله أنه فضل بعض الصحابة على علي بن أبي طالب. ذكر له القاضي عياض في ترتيب المدارك كتابا في التاريخ يبدو أنه كتاب تراجم وعنوانه تاريخ المولد والوفاة.

• يوسف بن يحيى بن يوسف بن محمد الدوسي، أبو عمر، شهر المغامي⁽²⁾ (ت 288 هـ/901 م) :

فقيه له عناية بالتاريخ. من أصل أندلسي تعلم بقرطبة ثم سافر إلى الشرق وسمع بالحجاز واليمن ومصر ثم عاد إلى الأندلس وبقي بها مدة ثم سافر من جديد إلى الشرق فمر بالقيروان فنزل بها واستوطنها إلى أن توفي. كانت له عناية بالتاريخ وذكر له القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك ثلاثة مصنفات اثنتان منها في التاريخ وواحد في الفقه وأصوله. ومصنفاته هي : فضائل عمر بن عبد العزيز، فضائل مالك بن أنس، والرد على الشافعي. عشرة أجزاء.

(1) انظر : الدباغ، معالم الإيمان، 2/243، - عبد الوهاب، ح ح، العمر، 20/4-22.

(2) انظر : القاضي عياض، ترتيب المدارك، 4/430-433، - عبد الوهاب، ح ح، العمر، 4/16-18.

• محمد بن محمد بن خيرون المعافري، أبو جعفر، (قتل 301 هـ - 914 م) ⁽¹⁾ :

مؤرخ شيعي، من أصل أندلسي. وفد به أبوه إلى القيروان واستفاد من النشاط العلمي السائد بها. رحل مرات ولقي عددا من العلماء وكان له اشتغال بالرواية وعلم الرجال. جلب معه عدة كتب وأدخلها القيروان منها كتاب داود الظاهري صاحب المذهب الفقهي المعروف.

اعتنق المذهب الشيعي عند قيام الدولة الفاطمية. وكانت بينه وبين قاضي الفاطميين محمد بن عمر المروزي منافسات حادة انتهت بغضب الحاكم عليه والأمر بقتله. فقتل في ليلة 11 رجب من سنة 301 هـ/10 فيفري 914 م. له : نسب الشيعة وأخبارهم. ألفه لعبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية.

• محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي، أبو العرب، (ت 333 هـ/944 م) ⁽²⁾ :

مؤرخ إفريقية البارز. ولد في عائلة عربية شهيرة في القيروان في منتصف القرن الثالث للهجرة/9 م. وكان جده تمام بن تميم أميرا لتونس وقد ثار على الوالي محمد بن مقاتل العكي ودخل القيروان سنة 183 هـ/799 م. وبقي فيها إلى أن أطرده إبراهيم بن الأغلب وأرسل به إلى بغداد حيث توفي مسجوناً.

عاصر أبو العرب الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ورأى نشأتها وسياستها التعسفية تجاه علماء السنة المخالفين لها. وكان هو نفسه من بين المناهضين لها. قال عنه القاضي عياض : "ودارت عليه المحنة من الشيعي (الفاطمي) حبسه وقيده مع ابنه مدة بسبب بني الأغلب... وهو أحد من خرج

(1) انظر : المالكي، رياض النفوس، 52/2-56، والدباغ، معالم الإيمان، 292-188/2، وعبد الوهاب، ح ح، العمر، 320-319/4.

(2) انظر : القاضي عياض، ترتيب المدارك، 334/3، - الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 38-35/3 - ابن فرحون، الديباج المذهب، 349-347.

لحرب بني عبيد وحاصر المهديّة". فقد شارك أبو العرب في الثورة التي وقعت ضد الفاطميين بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار). لكنه أثر الانسحاب من هذه الثورة وابتعد عن كل نشاط سياسي.

نشأ أبو العرب في القيروان وتعلم فيها وأخذ عن ما يقارب مائة وخمسين من شيوخها. ومنهم يحي بن عمر وأبو داود العطار وعيسى بن مسكين ومحمد بن مسكين وعبد الله بن أحمد بن طالب وعبد الجبار بن خالد السرتي وأبو العباس بن موسى وسهل بن عبد الله بن سهل القبرياني وحماس بن مروان وحبيب بن نصر بن سهل وجبلّة بن حمود الصدفي وأحمد بن أبي سليمان وسعيد بن إسحاق وسليمان بن سالم وأبو عثمان سعيد بن الحداد وأحمد بن معتب وحمديس القطان.

وترجم أبو العرب لأغلب هؤلاء الشيوخ. وإليهم أسند أخبارا تاريخية سجلها في كتاب الطبقات الذي وضعه.

استفاد أبو العرب من مجالسته للشيوخ ومناظرتهم ومدارستهم، كما استفاد من مكتبته الضخمة التي مكنته من الاطلاع على عدة علوم. ولما حصل على قدر وافر من المعرفة اتجه إلى التأليف. فقد كان بارعا في الفقه والحديث. وحاذقا في اللغة العربية وآدابها. وخبيرا في كتابة تراجم الرجال مما أعطاه شهرة المؤرخ. وأثنى العلماء من بعده على نبوغه وتحدث عنه القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك نقلا عن أبي عبد الله الخراط قائلا : "كان رجلا صالحا ثقة عالما بالسنن والرجال من أبصر أهل وقته بهما، كثير الكتب حسن التقيد، كريم النفس والخلق، كتب بخطه كثيرا في الحديث والفقه، يقال إنه كتب بيده ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة". وأشار الدباغ إلى تفوقه في مجال التاريخ وغيره من العلوم وقال في شأنه في كتاب معالم الإيمان إنه "رافع لواء التاريخ بإفريقية مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث".

صنّف أبو العرب ستة عشر كتابا، وقيل سبعة عشر، مواضيعها الفقه والتاريخ. ونقتصر هنا على ذكر كتبه المؤلفة في التاريخ ونبدأ بذكر الكتابين الموجودين ثم نعرض عناوين بقية كتبه التي لا زالت ضائعة.

- طبقات علماء إفريقية. أتم كتابته حوالي سنة 332 هـ/943 م. وتولى اختصاره المؤرخ الأندلسي الطلمنكي وأهداه إلى الخشني الذي أضاف إليه تعليقات وأقوال، وهو الكتاب الذي وصلنا. وفي سنة 1914 نشر الباحث الجزائري محمد بن أبي شنب هذا الكتاب دون أن يفصل بين أقول أبي العرب وأقوال الخشني. والباحث نفسه ترجمه إلى الفرنسية ونشره سنة 1920 تحت عنوان : Classes des savants de l'Afrique

ثم تولى الأستاذان علي الشابي ونعيم الحسن اليافي إصدار هذا الكتاب بتونس مع تحقيق دقيق وفصلا بين أقوال أبي العرب والخشني.

ويعد هذا الكتاب أول الكتب الواصلة إلينا في تاريخ إفريقية. تتناول فيه أبو العرب فضائل إفريقية مدعما أقواله بنصوص من الآثار. ثم ذكر كل من دخل من الصحابة والتابعين إلى إفريقية. وترجم إثر ذلك لعلماء إفريقية عامة والقيروان وتونس خاصة وجعلهم في طبقات مثلما هو واضح في عنوان كتابه. ولئن اختصت تراجمه بالإيجاز فإنها قدمت لنا معلومات هامة حول سير العلماء وإشعاعهم وآثارهم وسنوات وفياتهم وغير ذلك من المعطيات التاريخية المفيدة للباحثين. ومن هذه المعطيات المناظرات والمساجلات الكلامية التي كانت تعيشها القيروان في ذلك الوقت. ولأهمية هذا الكتاب فقد اعتبر مرجعا للمؤرخين من بعد مؤلفه. ومن الذين رجعوا إليه ونقلوا منه أبو بكر المالكي في كتاب رياض النفوس والقاضي عياض في كتاب ترتيب المدارك وغيرهما.

- المحن : وهو الكتاب الثاني الموجود لأبي العرب. موضوعه الأعلام الذين تعرّضوا للمحنة من الصحابة والعلماء والزهاد والقضاة والولاة. وشملت التراجم الممتحنين من أهل المشرق وأهل المغرب معا إلى عهد الخليفة العباسي المتوكل (232-247 هـ/847-861 م). ومن أشكال المحن التهديد والسجن والضرب والإبعاد والقتل.

واختار أبو العرب أن يجمع في كتابه بين تاريخ المشرق والمغرب. فهو يذكر أخبار من دارت عليهم محنة بالمشرق ثم يذكر أخبار من دارت عليهم محنة من أهل إفريقية بالمغرب. وبذلك يؤكد هذا المؤرخ اتجاهه إلى إبراز

إفريقية كم منطقة لها مكانتها كباقي مناطق الدولة الإسلامية التي كتب سكانها تاريخها بكل تفاصيله.

لقي الكتاب عناية من المحققين، فقد قام الدكتور يحيى وهيب الجبوري بتحقيقه وتولت دار الغرب الإسلامي ببيروت، نشره مرة أولى سنة 1983 ثم أعادت نشره في طبعة ثانية سنة 1988. وقام في الوقت نفسه الدكتور عمر سليمان العقيلي بتحقيقه وتولت نشره دار العلوم بالرياض بالمملكة العربية السعودية سنة 1984.

- طبقات رجال إفريقية. ولعله هو نفسه كتاب طبقات علماء إفريقية السالف الذكر.

- عباد إفريقية. وهو في تراجم زهاد إفريقية.

- فضائل مالك بن أنس. أشار إليه أبو العرب في كتابه المحن المذكور.

- كتاب فضائل سحنون بن سعيد وسيرته وأدبه. استعمله القاضي عياض في ترتيب المدارك عند الترجمة للإمام سحنون.

- مناقب بني تميم. وهو في مناقب قبيلته وعائلته.

- موت العلماء. جزآن. وهو في وفيات العلماء مثملاً يدل عليه اسمه.

- كتاب التاريخ. ويتكون من سبعة عشر جزءاً. وظن الباحث بشير البكوش، محقق كتاب رياض النفوس أن أبا العرب كتبه مرتباً على السنين، وهو شبيه بتاريخ خليفة بن خياط وتاريخ الرسل والملوك للطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير⁽¹⁾.

- مسند حديث مالك. أشار إليه أبو العرب في طبقاته.

- ثقات المحدثين وضعافهم وأسماءهم وكناهم. ويسميه ابن حجر كتاب الضعفاء.

(1) المالكي، رياض النفوس، 57/2، هامش 1.

ويتّضح من خلال العناوين المذكورة اتجاه أبي العرب إلى العناية بالأعلام والترجمة لهم. فقد ترجم للإمام مالك والإمام سحنون كما ترجم لأعلام أهل إفريقية وأعطاهم قدرا كبيرا من أعماله. ومن يدري لعل كتابه في التاريخ قد ضم كذلك تراجم عدد من الأعلام. ونعتبر أن فقد كتبه تعدّ خسارة للباحثين لأن غيابها عنا تحرمنا من إعطاء صورة حقيقية عن هذا المؤرخ الذي ما زلنا نقتصر في دراسته على جزء يسير من تراثه نجده بكتابه طبقات علماء إفريقية، والمحن أو نجده عند المؤرخين الذين نقلوا عنه⁽¹⁾.

• محمد بن محمد بن وشاح، يعرف بابن اللباد القيرواني، أبو بكر (ت 333 هـ/934 م)⁽²⁾.

فقيه له عناية بالتاريخ. جدّه مولى موسى بن نصير. أخذ عن جملة من الشيوخ منهم يحيى بن عمر وأخوه محمد وابن طالب وحمدیس وسعيد بن الحداد وغيرهم.

من تلاميذه الفقيه عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة. والمؤرخ محمد بن الحارث الخشني.

كان معدودا من الحفاظ والفقهاء وله عدة آثار مكتوبة في الفقه والتاريخ. ومن كتبه التاريخية نذكر ما يلي :

- كتاب فضائل مالك بن أنس. ينقل عنه أبو العرب في كتابه طبقات علماء إفريقية والقاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك.
- كتاب فضائل مكة.

(1) انظر :

Bahri Fethi, Abularab et al-Khuchani, deux auteurs et une œuvre, IBLA, 2/2002, n190, p187-202.

(2) انظر : المالكي، رياض النفوس، 2/283-292، - القاضي عياض، ترتيب المدارك، 3/304، - الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 3/21-27، - ابن قنفذ، وفيات، 217، - ابن فرحون، الديباج، 346-347.

- كشف الرواق عن الصروف الجامعة للأوراق. يعني أوزان الصروف الشرعية والأوقاف. وهو مهم في دراسة الأوضاع المالية في عهده. لكن هذا الكتاب ينسب كذلك إلى أحمد بن محمد بن اللباد الفاسي المتوفى سنة 1071 هـ/1660 م.

• الحسين بن أبي سعيد عبد الرحمان بن عبيد البصري، أبو علي، ويعرف بالوكيل (توفي في منتصف القرن الرابع للهجرة/10 م)⁽¹⁾.

أديب ومؤرخ. عاش في بيئة مثرقة وكان والده من كبار تجار القيروان وأثريائها زيادة على معرفته للحديث وحفظه له. أما الابن فقد استفاد من النشاط العلمي السائد بالقيروان وحصل على قدر من المعارف في الأدب والبلاغة والأخبار ورواتها. جمعته بالمؤرخ الخشني صحبة بالقيروان إلى أن انتقل صاحبه إلى الأندلس.

للوكيل مؤلف وحيد معروف هو المغرب عن أخبار إفريقية والمغرب. وهو من المصادر الهامة التي تؤرخ للحياة السياسية والأدبية والعلمية وجميع أوجه النشاط الفكري بإفريقية. وكان هذا الكتاب من المصادر التاريخية التي استعملها صاحب كتاب مفاخر البربر. وجاء في نص مفاخر البربر ما يلي : " ومن أراد الاستيفاء لأخبار المغرب فليطالع الكتاب المترجم "بالمغرب عن المغرب" تأليف (ابن) الوكيل، فإنه أشبع فيه القول، وذكر من نزل المغرب من الأدارسة والأغالبة والمهالبة والشيعة بني عبيد، وذكر تعاقب الدول من لدن افتتحت إلى زمانه، ثم تلاه إسحاق أبو علي الرقيق وبسط الكلام في أخبار إفريقية" ⁽²⁾.

(1) انظر : مؤلف مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، الرباط، 2005، 197، عبد الوهاب، ح، ح، العمر، 37-33/4، مقدمة رياض النفوس، للمالكي، 14/1 م.

(2) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، 197.

• محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق، ويعرف بالورّاق التاريخي.
(ت 363 هـ/973 م)⁽¹⁾ :

جغرافي ومؤرخ. من أصل أندلسي، أبأوه من وادي الحجارّة. نشأ وشب بالقيروان ثم انتقل إلى الأندلس ودخل قرطبة التي سكنها وبقي بها إلى أن توفي. ويبدو أنه خرج إلى الأندلس هروبا من المحنة التي حصلت لعلماء السنة زمن الفاطميين. وبما أنه أكمل حياته بالأندلس فيعتبره المختصون أنه من مؤرخي الأندلس، لكن منشأه بالقيروان وتصنيفه في تاريخ إفريقية جعلنا نضعه من ضمن مؤرخي القيروان.

لقد كان الوراق من المشهورين بعلم التاريخ حتى أنه لُقّب بالتاريخي لكثرة تأليفه فيه. ومما يميزه عن غيره من المؤرخين الذين سبقوه أنه مزج بين الكتابة في التاريخ والجغرافيا معا وهي الطريقة التي سار عليها البكري والرحالة التيجاني بعد ذلك. وأهم مصنفاته هي :

- مسالك المغرب وممالكه. ويسميه ابن عذاري المسالك والممالك. وهو ديوان ضخم شامل لجغرافية بلاد المغرب وتاريخها كلّفه بإنجازه الحاكم الأندلسي الحكم المستنصر. وقد أنجز الوراق عمله -المفقود- الذي أصبح مرجعا لكل مؤرخي المغرب في العصور التالية⁽²⁾. ويشير الباحث حسن حسني عبد الوهاب إلى أهمية الكتاب بقوله : "...وبالجملة فإن هذا الديوان موسوعة شاملة لأحوال البلاد المغربية في عصر المؤلف يعني في القرن الرابع للهجرة، وما نقله المؤرخون والجغرافيون عن هذه المجموعة يدلنا على سعة محتوياتها " ⁽³⁾.

(1) انظر : الزركلي، الأعلام، 1986، 148/7، عبد الوهاب، ح ح، العمر، 38/4-43، مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين بالأندلس، مدريد، 1967، 73-76. إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، 182.

(2) إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، 182.

(3) عبد الوهاب، ح ح، العمر، 39/4.

- أخبار تاهرت. - أخبار وهران. - أخبار تنس. - أخبار سبلماسة. -
أخبار نكور. - أخبار البصرة (بالمغرب الأقصى قرب السوس). وجاء
الحديث عن كل مدينة في بحث مستقل بذاته.

- تاريخ إفريقية.

- أنساب البربر، اعتمده البيهقي في كتابه المقتبس من كتاب الأنساب في
معرفة الأصحاب.

• أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، ابن الجزار، أبو جعفر، (ت 369 هـ -
980 م)⁽¹⁾ :

طبيب ومؤرخ. ولد بالقيروان سنة 285 هـ/898 م في عائلة اشغلت
بالطب واشتهرت به. فكان أبوه وعمه أبو بكر طبيبان، وتلقى عليهما العلوم
الطبية. كما تتلمذ على إسحاق بن سليمان واستفاد من علمه وخبرته. وأعانه
ثراء أسرته على الدراسة وعلي امتلاك مكتبة عظيمة، وكذلك على العيش بعيدا
عن الحكام الفاطميين في إفريقية فلم يتصل منهم بغير المعز لدين الله (341-
365 هـ/953-975 م).

حاز ابن الجزار ثقافة عالية وكان ملما بسائر المعارف والثقافات السائدة
في وقته من طب وطبيعة وتاريخ وغيرها.

له تصانيف عديدة في الطب والطبيعة والفلسفة والأدب والتاريخ. وقد
ذكر له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء اثنتين وعشرين مؤلفا. وعدّ له
المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب سبعة وثلاثين مؤلفا. وبالرغم من أن جل
مصنفاته كانت في ميدان الطب فإن ابن الجزار وضع مصنفات في التاريخ
وهي مفيدة توحى باقتداره في كتابة التاريخ⁽²⁾ ومنها :

(1) انظر : ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، 481-482، - ابن عذاري، البيان المغرب، 1/237، -
ياقوت الحموي، معجم الأقباء، 1/251.

(2) إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، 180.

- مغازي إفريقية. وموضوعه فتوح بلاد المغرب مثلما يدل عليه اسمه، وقد ذكره البكري في كتابه المسالك والممالك.

- أخبار الدولة. وقيل إن عنوانه تاريخ الدولة. وقيل كذلك دولة المهدي وظهوره بالمغرب.

والمقصود بالدولة هنا هو الدولة الفاطمية وعهد عبيد الله المهدي حاكمها الأول (297-322 هـ/909-933 م). وأشار الباحث حسن حسن حسني عبد الوهاب إلى أهمية هذا الكتاب وإلى إمكانية وجوده في خزائن الإسماعيلية بالهند وقال: " وهو تاريخ حافل بسط فيه القول عن ظهور عبيد الله المهدي بإفريقية وانتشار دعوته بها وسقوط دولة بني الأغلب وما حصل من الأحداث في تلك المدة ... ولا يستبعد أن يكون هذا الكتاب موجودا كاملا في بعض خزائن الإسماعيليين بالهند".⁽¹⁾

- التعريف بصحيح التاريخ. قال ياقوت الحموي في كتاب معجم الأدباء إنه رآه في مجلدات تزيد على العشر.

- طبقات القضاة. ويبدو أنه خصصه لمن تولى القضاء في إفريقية. وقد نقل عنه القاضي عياض في ترتيب المدارك.

ونضيف إلى هذه المصنفات المختصة في التاريخ مصنفات أخرى لها قيمة للمؤرخ إذ تساهم في التعريف بالبلدان، وبطريقة استعمال بعض المواد كالأحجار الكريمة والعطورات :

- عجائب البلدان. وقيل عجائب الأرض. وهو في تقويم البلدان ووصفها. أشار إليه الجغرافي الأندلسي محمد أبو بكر الزهري. كما أشار إليه ابن البيطار في الجزء الثاني من كتابه جامع المفردات.

- الأحجار الكريمة، ومعادنها ومنافعها وخواصها، وهو كتاب مفيد في معرفة المواد الثمينة المستعملة في ذلك الوقت. وقد ذكره التيفاشي

(1) عبد الوهاب، ح ح، العمر، 455/4.

القفصي (ت 651 هـ/1253 م) في كتابه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار.

- كتاب في فنون الطيب والعطر. وقد ذكره ابن الجزار في كتابه طب المشائخ وتحدث عنه المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب في كتاب ورقات⁽¹⁾. وتولت سنة 2007 مؤسسة بيت الحكمة بقرطاج-تونس إصدار الكتاب تحت عنوان وبتحقيق من الدكتور الراضي الجازي والدكتور فاروق العسلي.

• النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، أبو حنيفة ويشتهر بالقاضي النعمان (ت 363 هـ/974 م)⁽²⁾ :

مؤرخ شيعي بارز. ولد بالقيروان وبها نشأ وتعلم. وكان واسع العلم بالفقه والقرآن والأدب والتاريخ. تفقه بمذهب المالكية قبل أن يتحول إلى مذهب الشيعة الإسماعيلية. وصار من أركان الدعوة الفاطمية ومذهبها بإفريقية ثم بمصر.

عاصر أربعة من الحكام الفاطميين وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز لدين الله. وخدم الدولة بإخلاص. وكان أول ما ولي القضاء في عهد المهدي. وولي قضاء طرابلس أيام القائم. وعندما تولى المنصور عيـنه قاضيا على قضاته ومنحه بعض النفوذ وكتب له عهدا بالقضاء على المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن إفريقية. ولما انتقل المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة أخذ معه وجعله كبير قضاته وبقي في خطته إلى أن توفي.

وقد ألف النعمان في كثير من العلوم والفنون فألف في الفقه الشيعي وفي المناظرة والتأويل والعقائد والسير والتاريخ والوعظ وغير ذلك. وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أنّ كتبه كبار مطوّلة، وقال الباحث حسن إبراهيم حسن إنه ألف بضعة وأربعين كتابا بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا وضاع

(1) عبد الوهاب، ح، ورقات، تونس 1965، 321/1.

(2) انظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/415-423، - ابن العماد، شذرات الذهب، 47/3.

الباقى. وضبط له الباحث بشير البكوش محقق كتاب العُمر لحسن حسنى عبد الوهاب سنة وخمسين كتابا.

ونذكر فيما يلى بعض عناوين كتبه التى صنفها فى التاريخ أو فى العلوم التى تساعد على تقديم المعلومات التاريخية ككتب الفقه وأصوله وغيرها :

الكتب المتعلقة بالمذهب الإسماعيلى والردّ على خصومه :

وهى كتب كثيرة نذكر منها : اختلاف أصول المذاهب. والاتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ووافق قول أهل البيت. وذات البيان فى الرد على ابن قتبية وكتابه عيون المعارف. والرسالة المصرية فى الرد على الشافعى، فى جزأين. والرد على أحمد بن سريج البغدادى (الشافعى)، فى جزأين. والرد على أبى حنيفة. والرد على الإمام مالك بن أنس. والرد على الخوارج ...

المصنّفات المتعلقة بتاريخ الفاطميين :

- افتتاح الدعوة. ألفه سنة 346 هـ/957 م ويتناول تاريخ بدء الدولة الفاطمية. وكانت الباحثة وداد القاضى سباق فى نشره فى بيروت سنة 1970. ثم حققه وعلق عليه الباحث فرحات الدشراوى ونشره بتونس سنة 1975. ومثل هذا الكتاب مصدرا أساسيا لمعلومات ابن الأثير وابن خلدون وغيرهما فيما بعد.

- المجالس والمسائرات والمواقف والتوقيعات. مصدر هام فى تاريخ الدولة الفاطمية وعقيدتها. وقد حققه وعلق عليه الأستاذ محمد اليعلاوى والحبیب الفقى وإبراهيم شبوح، ونشر بتونس لأول مرة سنة 1978.

- معالم المهدي. جزء واحد، فى تاريخ مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدي.

- ذات المحن. أرجوزة فى جزأين، وتتعلق بثورة أبى يزيد مخلص بن كيداد الخارجى ضد الدولة الفاطمية.

- ذات المنن. أرجوزة في جزأين، وهي في سيرة المعز لدين الله الفاطمي.

المصنّفات المتعلقة بآل البيت والأئمة :

- كيفية الصلاة على النبي.

- المناقب لأهل بيت رسول الله النجباء والمثالب لبني أمية اللعناء. ويعرف باسم المناقب والمثالب. أي مناقب آل بيت الرسول من بني هاشم ومثالب بني أمية.

- شرح الأخبار في فضائل النبي المختار وآله المصطفين الأخيار. ويقع في ستة عشر قسماً وله قيمة تاريخية ويضم كثيراً من المقتبسات من كتب لم تصل إلينا.

- الإمامة. أربعة أجزاء.

- الهمة في اتباع الأئمة.

- التوحيد والإمامة من خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. في جزأين.

- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار.

- اختصار الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار. ويسمى مختصر الآثار. ألفه بأمر من المعز لدين الله سنة 348 هـ. وهو مختصر من موسوعته الفقهية الكبيرة المسماة دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام.

- منامات الأئمة في جزء واحد.

- الأرجوزة المختارة : وهي قصيدة من 2375 بيتاً من الشعر، كتبها القاضي النعمان بأمر من الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله، وموضوعها النبوة والإمامة حسب اعتقادات الإسماعيلية.

مصنّفات أخرى :

والقاضي النعمان مصنّفات أخرى لها قيمة تاريخية هي :

- التقرّيع والتعنيف لمن لم يعلم العلم فتعاطى التصنيف. في جزأين.

- الحلي والثياب.

- الراحة والتسلّي.

- تأويل الرؤيا أو موازنة التأويل لتعبير الرؤيا.

• محمد بن حارث بن أسد الخُشني⁽¹⁾، أبو عبد الله، ويُعرف في المصادر بابن الحارث وتُضاف إليه في الوقت نفسه نسبة القيرواني ثم الأندلسي. (ت 371 هـ/981 م)⁽²⁾.

مؤرخ القيروان المرحّل إلى الأندلس. ولد بالقيروان وشب فيها في مرحلة عصيبة في تاريخ إفريقية بسبب انهيار الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية. وشاهد وهو يتعلم محنة سببها تعسف الدولة الفاطمية الشيعية على علماء السنة المالكية. وهو الذي صور لنا في تأليفه صورا من الصراع الحاصل بين فقهاء المذهب المالكي والسلطة الفاطمية الشيعية المذهب.

وفي مرحلة ثانية من حياته خرج الخشني من القيروان قاصدا الأندلس سنة 311 هـ/923 م أو سنة 312 هـ ووصلها في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر بن محمد (300-350 هـ/912-961 م). وسكن عدّة مناطق أندلسية منها قرطبة. ثم قصد مدينة سبتة المغربية وبقي فيها مدة من الزمن قبل سنة 320 هـ/932 م فأعجب أهلها بشخصيته العلمية وتفقهت طائفة منهم عليه. ثم عاد إلى الأندلس، وبعد أن تردد في كور الثغور أثر الاستقرار بقرطبة التي

(1) خُشْن هو اسم موضع بإفريقية. وتوجد إلى الوقت الحاضر منطقة يسكنها أولاد الخشين وهي وترابيا قريبة من القيروان لكنها تابعة إداريا لمعتمدية سيدي الهاني من ولاية سوسة، ومن غير المستبعد أن يكون أصل الخشني من هذه المنطقة.

(2) انظر : القاضي عياض، ترتيب المدارك، 4/531، - ابن فرحون، الديباج المذهب، 355، - الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 3/81-83، - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 5/285، وانظر :

Bahri F., Abularab et al-Khuchani , op.cit., p.187-202.

بلغت عظمة فائقة وتسمت بدار العلوم خاصة في عهد الحكم الثاني بن عبد الرحمان الملقب بالمستنصر (350-366 هـ/961-976 م). والحكم هذا هو الذي قرّب إليه الخشني وكلفه بوضع عدد من الكتب كما عهد إليه بخطة المواريث ببجانة (Pechina) في إقليم المرية ثم الشورى بقرطبة. لكن إثر وفاته تقلصت حظوة مترجمنا في قصر أمير الأندلس المنصور بن أبي عامر الذي كان يحكم باسم الخليفة الأموي هشام الثاني ابن الحكم الملقب بالمؤيد (366-399 هـ/976-1008 م). وابتعد الخشني من القصر وصار يشتغل بصناعة الأدهان ويبيعها للناس إلى أن توفي ودفن بقرطبة.

تفقه الخشني بالقيروان على أحمد بن نصر وأحمد بن زياد وأحمد بن يوسف وابن اللباد والمُمسي، وسمع من غير واحد من شيوخ إفريقية. ولما دخل الأندلس سمع من شيوخ قرطبة كمحمد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ وأحمد بن عبادة ومحمد بن لبابة والحسن بن سعد.

برع ابن حارث الخشني في عدة علوم ووضع فيها مجموعة من التأليف وصفت بأنها حسنة مفيدة لكنها لم تذكر كلها في كتب التراجم. ويعتبر ابن فرحون في كتابه الديباج أكثر أصحاب التراجم إحصاء لكتبه. وتنتمي تأليفه إلى ميادين الفقه والتراجم والتاريخ زيادة على نظم الشعر. وصارت تأليفه مرجعا لأصحاب كتب التراجم والتاريخ من بعده. فالخشني هو أحد المصادر التي أخذ منها كل من ابن الفرضي في تاريخه والدباغ في معالم الإيمان والقاضي عياض في ترتيب المدارك وغيرهم.

وفيما يلي الكتب التي وضعها الخشني في التاريخ والتراجم وهي كثيرة وخاصة منها كتب التراجم :

- كتاب الرواة عن مالك أو طبقات من روى من مالك.

- مناقب سحنون، وقيل إنّ اسمه أخبار سحنون، وقيل كذلك فضائل سحنون.

- قضاة قرطبة وسماه ابن فرحون تاريخ قضاة الأندلس. وكان الخليفة الأموي الحكم هو الذي أمره بكتابته وطلب منه أن يجعله خاصا

بقضاة قرطبة. والكتاب مهم تحدث فيه الخشني على سير قضاة مدينة قرطبة من الفتح الإسلامي إلى سنة 375 هـ/968 م، وقدم بالتالي معلومات عن قرطبة في عصر الإمارة الأموية بالأندلس. فوفر لنا مادة قيمة لدراسة نظام القضاء في الأندلس وعرفنا بأصول القضاة (عرباً أو مولدين أو بربراً) وأطلعنا على كفاياتهم وقدراتهم في إصدار الأحكام. كما قدم لنا مادة طيبة عن إجراءات التقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء بالمقارنة مع ما كان عليه الحال في غير الأندلس من البلاد الإسلامية.

- علماء إفريقية أو طبقات علماء إفريقية أو هو تاريخ الأفارقة حسب القاضي عياض في ترتيب المدارك. وهو كتاب هام اعتنى فيه الخشني بتراجم علماء إفريقية ونظمهم في طبقات. وترجم لكل العلماء بقطع النظر عن انتمائهم للمذهب المالكي أو الحنفي، رغم كونه مالكي المذهب، مما يعني أنه لم يكن متعصباً للمذهب الذي يتبعه. وبهذه الطريقة أفادنا في معرفة جوانب من الحياة الفكرية بالقيروان آنذاك. كما مكنا من خلال النظر في التراجم من استخراج بعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية للقيروان وأهلها في تلك الحقبة من الزمن.

ويبدو أن هذا الكتاب وصل إلينا مبتوراً لأنه لم يشتمل على مقدمة ثم إنه بدأ مباشرة بترجمة محمد بن سحنون المتوفى سنة 256 هـ/870 م. والحال أن كل كتب التراجم تبدأ بمقدمة تنص على غاية المؤلف في وضع كتابه. ثم إن طبقة محمد بن سحنون ليست الأولى في طبقات علماء إفريقية إذ تسبقها مثلاً طبقة والده الإمام عبد السلام بن سحنون المتوفى سنة 240 هـ/854 م ولم نجده تحدث عنها في كتابه وهو أمر مستبعد.

وتكمن أهمية هذا الكتاب - على اختصاره - في تقديم جملة من المعلومات التاريخية المفيدة التي تتعلق بالحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالقيروان في القرون الأولى من الحضور الإسلامي بالمنطقة.

وقد كان الباحث محمد شنب أول من أصدر هذا الكتاب وجعل معه كتاباً آخر في نفس الموضوع لأبي العرب المتوفى سنة 333 هـ/944 م وجعلهما تحت عنوان طبقات علماء إفريقية وقام بترجمتهما إلى الفرنسية ونشرهما عام 1914/1332.

- طبقات فقهاء المالكية. نقل منه القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك.

- أخبار الفقهاء والمحدثين. وذكره الزركلي باسم أخبار الفقهاء.

- التعريف. وذكره الخشن في كتابه علماء إفريقية.

- الاقتباس. وذكره الخشن أيضاً في كتابه علماء إفريقية.

- المولد والوفاة.

- النسب. ألفه للحكم المستنصر وقيل عنوانه الأنساب.

• عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمان النفزي القيرواني، أبو محمد (386 هـ/996 م)⁽¹⁾ :

فقيه له عناية بالتاريخ. نشأ بالقيروان التي كانت تخضع لسلطان الفاطميين، ثم لسلطان بني زيري الصنهاجيين الذين بدأ حكمهم عندما انتقل أبو تميم المعز إلى مصر سنة 362 هـ.

أخذ ابن أبي زيد العلوم عن شيوخ القيروان ومن أشهرهم : أبو الفضل العباسي بن عيسى الممسي، وأبو سليمان ربيع بن عطاء الله نوفل القطان، وأبو عبد الله محمد بن مسرور العسال. وأبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق الأبياني. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام القيرواني. كما أخذ عن شيخين لهما باع كبير في معرفة الأخبار والتاريخ. الأول هو أبو بكر محمد بن محمد بن اللباد القيرواني، وكان معروفاً بجمع الكتب والبراعة في الفقه ومعرفة الأخبار. وقد كان ابن أبي زيد

(1) انظر : القاضي عياض، ترتيب المدارك، 492/4-497، - ابن فرحون، الديباج المذهب، 222-223، - الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 109/3-123.

ملازما له مختصا به. والثاني هو أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني المؤرخ الشهير المذكور سلفا. وما من شك أن لهذين الشيخين أثر واضح في ثقافة ابن أبي زيد التاريخية.

وسمع ابن أبي زيد كذلك من كثير من الرواة أمثال الحسن بن نصر السوسي وعثمان بن سعيد الغرابي وحبيب بن أبي حبيب الجزري. كما سمع في رحلته المشرقية التي أدى فيها فريضة الحج، من بعض الأعلام، كابن الأعرابي وابن المنذر وأبي علي بن أبي هلال وأحمد بن إبراهيم بن حماد القاضي.

وبفضل المناخ العلمي القيرواني والرحلة المشرقية والصلات العلمية والمذكرات، بلغ ابن أبي زيد القيرواني رتبة علمية عالية ألهته لوضع الكثير من المصنفات.

لقد وضع ابن أبي زيد مؤلفات كان لها انتشار واسع في أقطار المغرب والأندلس، وهي في أغلبها مصنفات فقهية تخدم المذهب المالكي وتفصل أحكامه وتعرض آراء رجاله، ومواقف إمامه من مختلف القضايا المستجدة، وتأويله للنصوص وأصوله المعتمدة في الاستنباط. وتناولت بعض مصنفاته أصول الدين والقرآن الكريم والزهد والرقائق والردّ على المبتدعين. واللافت للانتباه أن هذا الفقيه الكبير اعتنى بالتاريخ وكتب فيه في أحد كتبه الفقهية المسمى مختصر المدونة وهو ما سنذكره لاحقا.

ونشير فيما يلي إلى كتبه الثلاثة المهمة التي نالت أوفر الحظ من الدراسة والاهتمام طيلة قرون بعد عصر مؤلفها ابن أبي زيد وهي :

- الرسالة الفقهية وهو أشهر كتب ابن أبي زيد وأوسعها انتشارا لدى أتباع المذهب، وهو رسالة تلخص في مقدماتها أحكام العقيدة وفي أبوابها أحكام الفقه المالكي في العبادات والمعاملات. وقد استقطبت هذه الرسالة اهتمام كثير من الشراح من بلدان مختلفة وأن ذلك هيأ لها العناية الفائقة وجعلها كتابا مدرسيا يُقبل الطلبة عليه ويقوم الشيوخ بتدريسها.

- النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات. والكتاب موسوعة للفقه المالكي يستفيد منها من تقدمت له عناية بالفقه واتسعت

له دراية، لاشتماله على اختلاف علماء المذهب. وعملت جماعة من الأساتذة من المغرب الأقصى على إخراج الكتاب مطبوعا للناس. وتولت دار الغرب الإسلامي ببغروت نشره في خمسة عشر جزءا سنة 1999. ويقدم لنا هذا الكتاب الضخم فوائد تاريخية نستخرجها من مسائله الفقهية الكثيرة (1).

- مختصر المدونة الكبرى للإمام سحنون. لئن كان من المصنفات العديدة التي وضعها أعلام المذهب على المدونة الكبرى شرحا وتلخيصا وتهذيبا وتعقيبا، فإنه كان من أهمها وأكثرها ذيوفا في ربوع المراكز المالكية. علما بأن ملحق هذا الكتاب يحتوي على قسم تاريخي له قيمة.

والمعلق يسمى كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ (2)،

وفي هذا الكتاب تتجلى عناية عبد الله ابن أبي زيد بالتاريخ خاصة في ثلاثة من أبوابه التسع عشرة. والأبواب التي اعتنى فيها بالتاريخ هي :

- الباب الثاني : وهو باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وأيامه وعمره ونسبه وصفته وذكر بنيه وبناته وزوجاته، وذكر العشرة من أصحابه وأنسابهم وأعمارهم وشيء من التاريخ ومتى فرضت الشرائع. وهذا الباب يدخل في نطاق التأليف في السيرة النبوية. وكان مختصرا ودقيقا جمع فيه أخبارا تتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم فذكر نسبه وزوجاته وأولاده. كما ذكر عشرة من كبار الصحابة ومنهم الخلفاء الراشدون الذين تحدث عن طريقة وصولهم إلى الحكم وسنوات حكمهم ووفياتهم.

- الباب الثالث : باب فضل المدينة وذكر القبر والمنبر والمسجد والكعبة، وذكر صدقات النبي صلى الله عليه وسلم وذكر إجلاء اليهود. وتحدث

(1) تأكد لدى الباحثين أن كتب الفقه والنوازل تقدم فوائد جمة للباحث التاريخي. ولمزيد التعمق في المسألة انظر : مقال : الهنتاتي، نجم الدين، "التاريخ من خلال كتب الفقه"، الوارد في كتاب التراث والتحديث في الحضارة الإسلامية اليوم، منشورات جامعة الزيتونة، تونس 2003-2004، ص 81-95. ومقال : رويس، منير، "استفادة الباحث التاريخي من كتب التراث : الفقه والأحكام والفتاوى" بالمرجع نفسه ص 151-175.

(2) ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، حققه وقدم له وعلق عليه محمد أبو الأجناف وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة، 1985/1406.

في هذا الفصل عن فضل المدينة الحرم المدني كما تحدث باختصار عن إجلاء اليهود من مناطق العرب وتطرق أخيرا إلى صدقات النبي وطرق اقتسامها.

- الباب التاسع عشر والأخير : باب في الهجرة والمغازي والتاريخ :
تحدث فيه عن الفترة المكية في الدعوة الإسلامية ثم تحدث عن الفترة المدنية التي بدأت بالهجرة إلى المدينة إلى وفاة الرسول، واختار أن يذكر الأخبار بطريقة الحوليات من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الحادية للهجرة. وذكر في كل سنة جملة من الأخبار أرخصا بكل دقة وذكر اختلاف الإخباريين في بعضها.

ونختم ترجمة ابن أبي زيد بما قاله في آخر كتاب الجامع : "قد ذكرنا في كتابنا هذا المسمى الجامع الذي جعلناه آخر المختصر بعض ما حفظ عن مالك وعن بعض أصحابه وغيرهم ممن روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن ذكرنا من سلفنا وأئمتنا في الآداب والأمر والنهي وغير ذلك من الفنون التي جرت فيه وأكثر ذلك من مجالس مالك ومن موطئه. وذكرنا شيئا من التاريخ والمغازي وما شاكل ذلك فمنه لمالك ومنه لغيره من أهل العلم. وذكرنا في باب السير من هذا الكتاب ما أجمعت عليه الأمة، وجمعنا ذلك كله بما أمكننا من الاختصار والتحرير في تأدية ذلك إن شاء الله".

ونفهم من هذه الفقرة ميله إلى الاختصار ورجوعه أساسا إلى الإمام مالك في نقل أخباره ويلييه في أخذ الأخبار بعض الأعلام من المشاركة كابن عمر والليث ابن سعد... ومن المغاربة كالإمام سحنون.

ثالثا : مواضيع المؤرخين في مصنفاتهم :

نلاحظ منذ البداية أن مؤرخي إفريقية قطعوا مع الماضي فلم يعرضوا قط لتاريخ بلاد المغرب قبل الإسلام، وانصب اهتمامهم على تاريخها الإسلامي في قرونه الأولى، "بما يشي بأن الإسلام أصبح القوة الضاربة التي صاغت العقلية العربية"⁽¹⁾.

(1) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، (4-الفكر التاريخي)، 68.

فالمواضيع كلها تناولت التاريخ الإسلامي، وقد دلت دراسة مناهج المؤرخين في مصنفاتهم أنهم تناولوا عدة أنواع من البحوث فألفوا في التاريخ العام والتاريخ الإقليمي والمحلي وتاريخ البلدان. كما ألفوا في السير والتراجم. وتختلف كتاباتهم بين الطويلة والمختصرة، وبين الكتب والرسائل والأبواب المندمجة في المؤلفات الكبيرة. ونعرض فيما يلي إلى المواضيع التي طرقتها المؤرخون في الفترة التي تهمنا دراستها :

1 - كتب التاريخ العام :

لم يصنف أهل إفريقية في التاريخ العام وجعلوا كتاباتهم مقتصرة على تاريخهم المحلي. وكتاب التاريخ للفقير محمد بن سحنون وكتاب التعريف بصحيح التاريخ الطبيب ابن الجزار ليسا بالضرورة كتابين في التاريخ العام كما يوحي بذلك عنوانهما لأنهما كتابان مفقودان حالياً.

ولعل ما قام به الفقير ابن أبي زيد القيرواني يعتبر عملاً استثنائياً في كتابة التاريخ العام. فقد جعل في كتابه الجامع باباً في التاريخ العام عنوانه : "باب في الهجرة والمغازي والتاريخ"⁽¹⁾ وتحدث فيه عن الفترة المكية في الدعوة الإسلامية ثم تحدث عن الفترة المدنية التي بدأت بالهجرة إلى المدينة إلى وفاة الرسول، واختار أن يذكر الأخبار بطريقة الحوليات من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الحادية للهجرة. وذكر في كل سنة جملة من الأخبار أرّخها بكل دقة وذكر اختلاف الإخباريين في بعضها.

2 - كتب التاريخ المحلي :

تميز أهل إفريقية في كتابة التاريخ المحلي الذي نعني به تاريخ البلدان والمدن. وبالنسبة إلى الذين كتبوا في تاريخ البلدان نجد المؤرخ الوراق الأندلسي قد وضع كتاباً عنوانه تاريخ إفريقية. والمؤرخ أبو العرب اختص بالحديث عن تاريخ المشرق والمغرب في الوقت نفسه. وتجلّى ذلك في كتابه المحن. فقد ذكر فيه أخبار من دارت عليهم محنة بالمشرق ثم أخبار من دارت

(1) ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن، 265-302.

عليهم محنة من أهل إفريقية بالمغرب. ولعله كان يهدف من خلال إدراجه لتاريخ إفريقية رغبته في إبراز منطقته كم منطقة ذات قيمة في الدولة الإسلامية.

وتتأكد لدينا رغبته في إعلان منطقة إفريقية منطقة متميزة، ما جاء في إنتاجه الفكري. فقد ألف كتابا خاصا بإفريقية وعلمائها وسماه **طبقات علماء إفريقية**. ثم أنه داخل هذا الكتاب جعل القسم الأول في ذكر فضائل إفريقية. وذكر مجموعة من الأحاديث مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل إفريقية وبلاد المغرب نذكر منها ما يلي (1) :

قال أبو العرب : وحدثني فرات بن محمد قال : حدثنا عبد الله بن أبي حسان اليحصبي عن عبد الرحمان بن زياد بن أنعم عن أبي عبد الرحمان الحبلي عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليأتيني أناس من أمتي من إفريقية يوم القيامة وجوههم أفضل نورا من نور القمر ليلة البدر".

وحدثني فرات بن محمد قال حدثني موسى بن سليمان وأبو مسلم عبد الرحمان بن الجهم عن عبد الرحمان بن زياد بن أنعم عن أبي عبد الرحمان الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليحشرن قوم من أمتي من إفريقية يوم القيامة وجوههم أنور من نور القمر ليلة البدر.

ودعم أبو العرب حديثه عن فضائل إفريقية بذكر الصحابة والتابعين القادمين إلى المنطقة زمن الفتوحات وبعدها.

وبالنسبة إلى تاريخ المدن عرفت إفريقية عناية بالموضوع. وحظيت المنستير المدينة الساحلية ومركز المراقبة المعروف بالتأليف. فالفقيه يحيى بن عمر (ت 289 هـ/901 م) وضع كتابا كاملا في فضائل المنستير. وكتاب **طبقات أبي العرب** تعرض إلى فضائل هذه المدينة.

من جهة أخرى، جلبت فضائل مكة والمدينة اهتمام مؤرخي إفريقية. وابن اللباد (ت 333 هـ/944 م) مثلا اعتنى بمكة ووضع فيها كتابا عنوانه

(1) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، 44.

كتاب فضائل مكة. وابن أبي زيد القيرواني خص المدينة بالحديث وجعل لها بابا في كتابه الجامع عنوانه : "باب فضل المدينة وذكر القبر والمنبر والمسجد والكعبة، وذكر صدقات النبي صلى الله عليه وسلم وذكر إجلاء اليهود". وتحدث في هذا الباب عن فضل المدينة والحرم المدني كما تحدث باختصار عن إجلاء اليهود من مناطق العرب وتطرق أخيرا إلى صدقات النبي وطرق اقتسامها.

وضمن الكتب المعتنية بالتاريخ المحلي يمكن أن نضع كتب تاريخ الدول. واشتهر القاضي النعمان بالكتابة في تاريخ الدولة الفاطمية في كتابيه افتتاح الدعوة والمجالس والمسائرات. والطبيب ابن الجزار (ت 380 هـ/990 م) وضع بدوره كتابا في تاريخ الدولة الفاطمية عنوانه أخبار الدولة الفاطمية.

3 - كتب المغازي والفتوح :

شارك أهل إفريقية بقدر ضعيف في الكتابة في تاريخ المغازي والفتوح. والعالم عيسى بن أبي المهاجر (ت 252 هـ/866 م) الذي يعد أول مؤرخ ظهر بإفريقية، ألف كتابا في فتوح إفريقية، لكننا لا نعرف محتواه لأنه مفقود. وتزامن ظهور هذا الكتاب مع كتاب عبد الملك بن حبيب الأندلسي في مغازي الرسول، وكتاب ابن عبد الحكم المصري (ت 257 هـ/870 م) فتوح مصر والمغرب. مما يؤكد اتجاه المؤرخين المسلمين إلى العناية بموضوع المغازي والفتوحات في تلك الفترة.

وفي الموضوع نفسه ألف الطبيب ابن الجزار (ت 369 هـ/980 م) ووضع كتابا عنوانه مغازي إفريقية لكننا نجهل محتواه لأنه مفقود. كما أن الفقيه ابن أبي زيد القيرواني تميز في كتابه الجامع، بحديثه عن مغازي الرسول ولم ترد في كتابه سوى معلومة واحدة تخص فتح إفريقية ذكرها على لسان الإمام مالك وهي التالية : "قال مالك : وفتحت مصر سنة عشرين وإفريقية يوم موت حفصة. قال غيره : سنة سبع وعشرين".

4 - كتب الأنساب :

تعتبر عناية أهل إفريقية بالكتابة في علم الأنساب قليلة. ومن الذين صنفوا في هذا الموضوع الحشني (ت 361 هـ/971 م)، الذي كتب كتاب

النسب، لكننا لا نعرف محتواه كذلك. والوراق التاريخي (ت 363 هـ/973 م) وضع كتابا في أنساب البربر، لكننا نجهل محتواه أيضا.

وبالنسبة إلى الشيعة نذكر التصنيف الذي وضعه محمد بن خيرون (قتل 301 هـ/914 م) وعنوانه نسب الشيعة وأخبارهم وهو هام في جانبي معرفة الأنساب والأئمة معا.

ويجب أن ننتظر آخر القرن الخامس للهجرة/ 12 م ليضع إبراهيم بن الأجدابي كتابين في الموضوع نفسه هما كتاب المختصر في الأنساب وكتاب اختصار نسب قريش لأبي عبد الله الزبير.

5 - كتب التراجم :

يرى الباحثون المحدثون بأن هناك تساند واضح بين التاريخ والتراجم، كما يشيرون إلى أن كتب التراجم بدأت مبكرة ولكنها تبلورت وتنوعت في القرون الإسلامية المتأخرة⁽¹⁾.

واهتمت كتب التراجم بكتابة سيرة الشخصيات اللامعة والمتميزة في المجتمع في بلد من البلدان أو مدينة من المدن أو قرن من القرون أو طبقة أو فئة من الفئات. وربما اهتمت بالترجمة للأسر والبيوت الحاكمة.

وتعدّ كتب التراجم أهم أنواع المصنفات التاريخية بإفريقية في الفترة الزمنية المدروسة. ومن هذه الكتب ما اعتنى بالسيرة والمدائح النبوية، أو اعتنى بالسيرة الفردية أو الجماعية (كعلماء المذهب الواحد)، أو بالتاريخ الأسري والعائلي.

- كتب السيرة النبوية والمديح النبوي : كانت مساهمة أهل إفريقية ضعيفة بالمقارنة إلى مناطق المشرق الإسلامي. والقاضي النعمان (الشيعة) وفي معرض دفاعه عن العقيدة الإسماعيلية وردوده على خصومه من السنة وضع رسالة تتعلق بالرسول عنوانها كيفية الصلاة على النبي. والفقهاء ابن أبي زيد القيرواني جعل الباب الثاني من كتاب الجامع في السيرة النبوية، وجعله

(1) فوزي، فاروق عمر، التدوين التاريخي عند المسلمين، 162.

تحت عنوان : "باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وأيامه وعمره ونسبه وصفته وذكر بنيه وبناته وزوجاته، وذكر العشرة من أصحابه وأنسابهم وأعمارهم وشيء من التاريخ ومتى فرضت الشرائع"⁽¹⁾. وكان هذا الباب مختصرا ودقيقا جمع فيه ابن أبي زيد أخبارا تتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم فذكر نسبه وزوجاته وأولاده. كما ذكر عشرة من كبار الصحابة ومنهم الخلفاء الراشدون الذين تحدث عن كيفية وصولهم إلى الحكم وسنوات حكمهم ووفياتهم.

- كتب السير : كثيرة وشملت أعلام الفقه وبعض رجال الحكم.

لقد اعتنى أهل إفريقية بتراجم أعلام المذهب المالكي ووضعو عدة مصنفات في الغرض. فكتب أبو العرب كتاب فضائل مالك وكتاب فضائل سحنون. وكتب محمد بن سحنون كتاب مناقب سحنون وجعله في مناقب والده الإمام الشهير. كما كتب الخشني كتاب مناقب سحنون (أيضا).

من جهة أخرى وقعت الترجمة إلى علماء المذهب المالكي في مصنف واحد، ولم يقع الاختصار هذه المرة على الحدث عن علم واحد مشهور بل تم التعريف بعدد وافر من الأعلام الذين تميزوا في مجتمعهم بأمر ما ولو كان هينا. ويعد كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب أبرز دليل على ذلك. وواصل الخشني أثر أبي العرب فكتب بالطريقة نفسها، كتابا يحمل العنوان نفسه طبقات علماء إفريقية. ثم توالى ظهور كتب التراجم بإفريقية وأشهرها كتاب المالكي رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسآكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. وكتاب القاضي عياض المغربي ترتيب المدارك الذي ترجم لأعلام المذهب المالكي من إفريقية وغيرها. وهذا الكتاب هو الذي استخرج منه محمد الطالبي كتاب تراجم أغلبية.

ونشير في هذا السياق إلى أن كتابة تراجم الفقهاء لم تقتصر على أعلام المذهب المالكي بل وجدت مصنفات كتبت في أعلام المذاهب الأخرى لكنها ضاعت. ومنها كتب أعلام الفقه الحنفي. يقول الدكتور محمود إسماعيل : "ومن الراجح أن فقهاء الأحناف صنفوا كتباً عن مذهبهم وطبقات أعلامهم، لكنها

(1) بن أبي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن، 126-138.

مفقودة، إذ نرجح إحراق المالكية لها، حيث اعتبروا الأحناف صنو الفاطميين "من أهل الشرك"..."⁽¹⁾. ونعتقد أن إتلاف كتب الأحناف لم يتم بالحرق كما ورد في الاستشهاد الماضي وإنما تم بالإهمال الذي أدى إلى التلف، بعد أن ساد المذهب المالكي وصار هو المذهب الرسمي للبلاد منذ إعلان المعز بن باديس الصنهاجي ذلك في مطلع الأربعينات من القرن الخامس للهجرة.

أما الكتب والمصنفات المؤلفة في سير الحكام بإفريقية، فنذكر منها كتاب معالم المهدي (عبيد الله) وكذلك أرجوزة ذات المنن، وهي قصيدة في سيرة المعز لدين الله الفاطمي نظمها القاضي النعمان. ومن ضمن هذه الكتب ما ألف في سيرة الأئمة الشيعية. فقد كتب القاضي النعمان سلسلة من كتبه في الأئمة الإسماعيلية. ومنها التوحيد والإمامة من خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار، والأرجوزة المختارة، والإمامة، والهمة في اتباع الأئمة، وشرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار.

- كتب سير الأسر والعائلات : ومنها الكتب المؤلفة في تاريخ آل البيت التي بعض الأمثلة منها في تاريخ إفريقية. فالفقيه عبد الله بن التبان (ت 371 هـ/ 901 م) كتب كتاباً في فضائل آل البيت ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك والدباغ في معالم الإيمان. والقاضي النعمان صنف في نفس الموضوع وكتب المناقب والمثالب. والفقيه ابن أبي زيد القيرواني تعرض في كتاب الجامع إلى بعض أخبار آل البيت فتحدث عن علي بن أبي طالب وزواجه بفاطمة وولادة الحسن والحسين ووفاة فاطمة... وهذا يدل على ولع أهل إفريقية بتتبع أخبار آل البيت⁽²⁾.

وإلى جانب التأليف في آل البيت ألف بعض المؤرخين في قبائلهم وأسرهم ومن هؤلاء المؤرخ أبو العرب الذي خصّ القبيلة التي ينتسب بالتعريف ووضع كتاباً سماه كتاب مناقب تميم.

(1) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، 183.

(2) ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، 130-270-275-300.

الخاتمة :

إن البحث في نشأة علم التاريخ وتدوينه بإفريقية عملية شاقة تتخللها مخاطر وجود ثغرات عند التأليف. وترجع أسباب ذلك إلى قلة توفر المعلومات وتشتتها خاصة بعد ضياع أغلب المدونات التاريخية. ومزيد البحث في الموضوع والتعمق فيه قد يوصلنا إلى تحديد ملامح جديدة للكتابة التاريخية بإفريقية. ولعله من المبالغة في الاعتزاز بتراث علماء أهل إفريقية، أن نتحدث عن مدرسة تاريخية قيروانية قد نشأت بالقيروان منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/8 م. وإذا قبلنا بوجود هذه المدرسة التاريخية فإن القرن الخامس للهجرة/11 م يُعدّ قمة تجلياتها نظرا لوجود مؤرخين كبيرين عاشوا في تلك الفترة هما : إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني المتوفي بعد سنة 1028/418 م وأبو بكر عبد الله المالكي المتوفي في أواسط القرن الخامس للهجرة/11 م. ولكليهما مكانة متميزة في مجال علم التاريخ بإفريقية. فالرقيق القيرواني هو صاحب كتاب تاريخ إفريقية والمغرب⁽¹⁾. وقد أثنى عليه المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون في مقدمته⁽²⁾ واعتبره مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقيروان وهو (وأبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية) من المؤرخين الأفاضل، وكلاهما : "عدل عن الإطلاق إلى التقييد ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد قيد شوارد عصره. واستوعب أخبار أفقه وقطره واقتصر على أحاديث دولته ومصره...". أما المالكي فقد وضع كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وهو كتاب هام في تاريخ القيروان وإفريقية لا يستغني عنه أي باحث في تاريخ المنطقة قديما وحديثا.

والاطلاع على محتوى الكتابين واستثمار ما جاء فيهما من معلومات يمكننا من تحقيق إضافات في مسألة التدوين التاريخي بإفريقية وهو ما يتأكد القيام به في قادم الأعمال.

(1) انظر : الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق منجي الكعبي، تونس 1968.

(2) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الجيل، د.ت، 5.